المشكاة
مجلّة علميّة محكّمة
العدد الثّامن- 2010

النّزعة الأفلاطونيّة في تفكير ابن خلدون

د. رضا عزّوز
المعهد العالي لأصول الدّين
جامعة الزّيتونة – تونس

عندما نريد أن نتطرّق إلى علاقة ابن خلدون بالفلسفة فلا بدّ أن نتطرّق إلى الفصل المتعلّق بدحض ابن خلدون للفلسفة والحجج التي ساقها لإبطال ادّعائها أنّ العلم الطّبيعي برهاني ويقيني. فالمعرفة البرهانيّة كلّية والكلّي ذهني لا يطابق ما هو خارجي وشخصي. أمّا العلم الإلهي فموضوعه الذّوات الروحيّة وهذه لا برهان عليها. فالبرهان يقتضي تجريد ماهيات من المحسوس وهذه الذّوات غير حسيّة. فالعلم الإلهي لا يتوصّل إلاّ إلى نتائج ظنية أمّا ادعاؤها أنّ المعرفة العقليّة موصلة إلى السّعادة فادّعاء زائف مردود. فسعادة النّفس لا تدرك إلاّ بزوال الشّواغب والموانع الحسّية بينما البراهين التي تعتمد عليها الفلسفة مدارك جسمانية.

وهذا التّهافت للفكر الفلسفي ناتج عن إدراك أنّ العقل الإنساني لا يستطيع أن يصل إلى "العلم المحيط" أو أن يحيط بالوجود. فالمعرفة اليقينية معرفة محدودة بحدود التّجربة ولا يمكن للعقل البشري أن يحيط بالوجود ولا أن يصل إلى "العلم المحيط".

وقد ذهب في نظر بعض الشّارحين لتفكير ابن خلدون أنّ هذا الدّحض للتّفكير الفلسفي موجّه ضدّ الفكر المثالي الذي يعتقد أنّه يمكن اختزال الوجود

في ما هو مدرك عقليا. فالأساس الفلسفي لتفكير ابن خلدون أساس واقعي أي أنّ الوجود منفصل عن الفكر وعليه أن يخضع في أحكامه إلى تفاصيله وتنوّعه. فهل كان ابن خلدون واقعيا في تفكيره إذا كان تصوّره للعلم تصوّرا صناعيا ؟ هل تأسيس الصّنائع على المعرفة العلميّة يتّفق مع الموقف الواقعي الذي يجعل العقل خاضعا للتّجربة الحسّية ؟

إنّ الأطروحة التي أريد الدّفاع عنها تقوم على أنّ ابن خلدون لم يكن سجين مذهب فلسفي واحد فتصوّره للمعرفة يجمع بين ما هو عقلي وما هو نقلي، بين ما هو تصوّري وما هو واقعي، بين ما هو شكلي وما هو نفعي. فتفكيره الفلسفي يتّسم بتنوّع وثراء لا يمكن اختزاله في مذهب واحد. فهو يحرص دائما على تجاوز وثوقية المذاهب الفلسفيّة وتناقضاتها، لأنّه كان يعتقد أنّ العقل الإنساني لا يمكن أن يحيط بالوجود أو يختزله. ثمّ إنّ تطوّر المعرفة العلميّة ليس مرهونا بخضوعها إلى مذهب فلسفي مسبق.

لكنّ تأكيد ابن خلدون على أهميّة الصّناعة في العلم يبيّن خلافا للتّأويلات المتداولة أنّ الأساس الفلسفي للمعرفة العلميّة عنده يبقى أفلاطونيّا في جانب كبير منه وليس أرسطيّا، وأنّ غاية ابن خلدون من خلال نقد التّجريد التأمّلي هو إيجاد جدليّة بين النّظر والتّجربة وليس خضوع النّظر إلى التّجربة كلّيا. وهذا الموقف لابن خلدون لا يعتبر حالة شاذّة لأنّ المعرفة العلميّة الحديثة لا تقوم على فلسفة واقعيّة وإنّما على إعادة الاعتبار للفلسفة الأفلاطونيّة. فابن خلدون من خلال ربط العلم بالصّناعة واعتبار أنّ الصّناعة يمكن أن تعتمد على أساس علمي قد تجاوز الموقف الأرسطي الذي يجعل من المعرفة العلميّة معرفة برهانيّة؛ ومن الصّناعة معرفة شعريّة ونفعيّة. ولهذا لا يمكن أن نقبل الأطروحة التي تعتبر أنّ الأساس الذي تقوم عليه الفلسفة الإسلاميّة أساس أرسطي وأفلوطيني. فلأفلاطون موقع متميّز في الفلسفة الإسلاميّة كما هو الشّأن عند الفارابي وابن سينا وابن خلدون.

ما هي الحجج التي يمكن أن نسوقها لتدعيم هذه الأطروحة ؟ يقول ناصيف نصّار : "إنّ إشكاليّة فكر ابن خلدون الفلسفيّة محدّدة جوهريّا بمعطيات

الفلسفة اليونانيّة العربيّة وبخاصّة في وجهها الأرسطوطالي والأفلوطيني" [1].
منذ البداية يحصر ناصيف نصّار فكر ابن خلدون في الأساس الأرسطي والأفلوطيني مستبعدا فلسفة أفلاطون إمّا لأنّ ابن خلدون لم يطّلع عليها مباشرة أو أنّها تتناقض وتفكيره الواقعي، فهو يختزل نظريّة أفلاطون في ما يسمّى بواقعيّة الأفكار؛ وكأنّ أفلاطون لم يُعد النّظر في هذه النظريّة، ويعتبر أنّ الحلّ الأفلاطوني بعيد عن فكر ابن خلدون كما هو الشّأن بالنّسبة إلى الحلّ التصوّري والحلّ الأسمى. فموقف ابن خلدون أقرب إلى التّجريبيّة منه إلى العقلانيّة؛ وهذه التّجربة تقوم على المعاينة والاستقراء والتوقّع. نلاحظ أنّ هذا التّأويل لنظريّة ابن خلدون يريد أن يجعل منه أحد منظّري العلم الحديث وأحد المؤسّسين للطّريقة التّجريبيّة. إذن هل يمكن للتّجريبيّة أن تكون أساس الفكر العلمي عند ابن خلدون ؟

يجب أن نلاحظ أوّلا أنّ ابن خلدون لم يطرح فقط قضيّة العلم في علاقته بالواقع بل قضيّة العلم كصناعة في علاقته بالواقع الاجتماعي. فالطّبيعة الصناعيّة للعلم لا تنفصل عن العمران والتّاريخ. فالعمران يمثّل ما تضيفه الصّناعة إلى الطّبيعة؛ والصّناعة بما أنّها متطوّرة فهي تاريخيّة. فالعلاقة بين المجرّد والعيني بين النّظري والمحسوس مرتبطة بالنّشاط الصّناعي الذي هو نشاط اجتماعي وتاريخي. هذا النّشاط يحتاج إلى علم جديد هو علم العمران وإلى إعادة النّظر في منهجيّة علم التّاريخ حتّى يكون تفسير الأحداث التاريخيّة تفسيرا موضوعيّا.

تقوم علاقة المعرفة بالصّناعة عند ابن خلدون كما هو الشّأن عند إخوان الصّفاء على حساب النِّسب. فحساب النّسب أساس العلوم والصّنائع كلّها وهو السّبيل لتفسير الواقع موضوعيّا. يقول إخوان الصّفاء "إنّ علم نسبة العدد علم شريف جليل وأنّ الحكماء جميع ما وضعوه من تأليف حكمتهم فعلى هذا الأصل أسّسوه وأحكموه وقضوا لهذا العلم بالفضل على سائر العلوم إذ كانت كلّها

---

1) نصّار، ناصيف، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، ط 3، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1994م، ص 63.

محتاجة إلى أن تكون مبنيّة عليه ولولا ذلك لم يصح عمل ولا صناعة ولا ثبت شيء على الحال الأفضل"[1].

يمكن أن نعتبر هذا العلم صناعة بل هو أفضل الصّناعات وهو علم عددي وهندسي تستند إليه كلّ العلوم الأخرى. فما رأي ابن خلدون في هذا العلم ؟ يذكر ابن خلدون حساب النّسبة كجزء من علوم الهندسة حسب كتاب الأصول لإقليدس، وفائدة هذا العلم أنّه "يفيد صاحبه إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأنّ براهينها كلّها بيّنة الانتظام جليّة التّرتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطإ. وقد زعموا أنّه كان مكتوبا على باب أفلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن علينا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصّابون للثّوب الذي يغسل منه الأقذار وينقّيه من الأوضار والأدران وإنّما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه" [2]. نرى أنّ علم الهندسة ضروري لكي تكون المعرفة منتظمة البراهين متّضحة المفاهيم وهي الطّريق لإدراك الصّواب والوصول إلى الصّدق في المعرفة. فكيف طبّق ابن خلدون هذه الطّريقة في المعرفة ؟

لا تكمن عبقريّة ابن خلدون في الرّجوع إلى التّجربة ولا في تأسيس المعرفة العلميّة على أساس واقعي. فنظريّته العلميّة نظريّة رياضيّة قائمة على حساب النِّسب ممّا يجعل فلسفته للمعرفة فلسفة أفلاطونيّة. وبالتّالي فإنّ ابن خلدون يُعدّ بحقّ وريث إخوان الصّفاء الذين جعلوا من المعرفة العلميّة صناعة لأنّها تقوم على حساب النِّسب.

لا نحتاج لتأكيد هذه الأطروحة إلى أدلّة كثيرة؛ فالمقدّمة زاخرة بتطبيقات هذا الحساب سواء في علم العمران أو علم التّاريخ. يعتبر ابن خلدون علاقة الدّولة بالعمران كعلاقة الصّورة بالمادّة وأنّه "على نسبة أعداد المتغلّبين لأوّل الملك يكون اتّساع الدّولة وقوّتها وأمّا طول أمدها أيضا فعلى تلك النّسبة لأنّ عمر الحادث من قوّة مزاجه ومزاج الدّولة إنّما هو العصبيّة فإذا كانت العصبيّة

---

1) إخوان الصّفاء، الرّسائل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1995م، ج 1، ص 250.
2) ابن خلدون، المقدّمة، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971م، ص 486.

قويّة كان المزاج تابعا لها وكان أمد العمر طويلا والعصبيّة بكثرة العدد ووفوره. وهكذا نِسَبُ الدّول في أعمارها على نسبة القائمين بها" [1]. وإذا أردنا تحديد عمر الدّولة فعلينا أن نقيسه بعمر الشّخص "فهذا العمر للدّولة بمثابة عمر الشّخص من التزيّد إلى سنّ الوقوف ثم إلى سنّ الرّجوع ولهذا يجري على ألسنة النّاس في المشهور أنّ عمر الدّولة مائة سنة"[2].

إنّ ما تنعم به الدّولة من حضارة على نسبة عظمها "فعلى قدر عِظم الدّولة يكون شأنها في الحضارة إذ أمور الحضارة من توابع التّرفِ والتّرفُ من توابع الثّروةِ والثّروةُ والنّعمةُ من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدّولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كلّه"[3]. ولهذا فآثار الدّولة على نسبة قوّتها في أصلها فمبانيها وهياكلها تكون على نسبة قوّة الدّولة؛ فالدّولة العظيمة تكون آثارها عظيمة. وعندما يعتمد ابن خلدون مقياس الفصل بين الممكن والممتنع فالممكن علاقة النّسبة التي ينتظم بها الواقع فيصبح معقولا فالإمكان صورة ومادّة والصّورة رياضيّة. أمّا الممتنع فهو النّظر في "أصل الشّيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمته ونسبة ذلك على أحواله"[4]. فإذا جاوز نطاقه حكم بامتناعه.

وفي الحقيقة إنّ العلم النّسبة مستمدّ من التّجربة وهذا ما تشهد به الممارسة الصناعيّة التي نجدها في صنائع كثيرة مثل الحياكة والبناء والشّعر. فهذه الصّناعة بمثابة نسيج من العلاقات تنتظم في أشكال تقوم على النّسبة. ولهذا السّبب يمكن تطبيقها على المادّة رغم ما تتّسم به هذه الأشكال من تجريد. فالشّاعر والبنّاء والنسّاج يحتاجون إلى قوالب أي صور ذهنيّة على أساسها يقع البناء والنّسيج، وهذا لا يتمّ إلاّ باستعمال وتكرار التّجربة. فالصّناعة نسيج من العلاقات باستعمال قوالب كلّية تفرض على المادّة وتؤكّدها التّجربة. فالصّناعة تضفي صورة من المادّة؛ وهذه الصّورة نظام رياضيّ أساسه النّسبة يمكّن من

1) نفس المرجع، ص 163 – 164.
2) نفس المرجع، ص 171.
3) نفس المرجع ، ص 184.
4) نفس المرجع، ص 183.

تنظيم المادّة وتوحيد أجزائها المتعدّدة. فهذه العلاقات تكتسب تجريبيّا ثمّ تصطبغ بصبغة رياضيّة.

وإذا اعتبرنا أنّ هذه العلاقة مستمدّة من التّجربة الحسّية، فإنّها لا تنفصل عن اللّغة، بل يمكن أن يعتبر أنّ حساب النّسبة مصدر فنّ الموسيقى باعتبار أنّ فنّ الموسيقى سابق للشّعر. فالموسيقى تقوم على إدراك الملائم للحسّ، والملائم هو المتناسب في أشكاله وكيفيّته بحيث لا يخرج عمّا تقتضيه مادّته. فالحسن يكمن في التّناسب وهذا التّناسب يثير لذّة في الحسّ. نرى إذن أنّ الصّناعة تدرك التّناسب في المحسوس بإنتاج الحسن في المسموعات والمرئيّات ثمّ يدرك التّناسب بطريقة مجرّدة في العلوم العقليّة والعلوم الهندسيّة.

إنّ حساب النّسبة أساس إنتاج الحسن وأساس إدراك الحقّ وأساس دحض الأوهام، وهذا ما يبرز عند دحض ابن خلدون لطريقة علم الكلام فيشبّه العقل بميزان للذّهب ولكن لا يمكن أن نزن به الجبال. وفي علمي الكيمياء والتّنجيم لا يمكن للإنسان الوصول إلى "العلم المحيط" لتغيير طبيعة المواد وتخليق إنسان أو حيوان أو نبات. فحساب النّسبة يبيّن لنا أن ليس هناك نسبة بين علم الإنسان و"العلم المحيط"؛ فالعلم الإنساني يقتضي جدليّة بين الفكر والعمل. يقول ابن خلدون : "أوّل العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أوّل العمل" [1]. فهدفُ ابن خلدون تحويل الممارسة إلى صناعة علميّة بالرّبط بين النّظر والعمل، وهذا ما دعا إليه أفلاطون في نقده للسّفسطائيّة التي تدّعي كفاءة عامّة دون أن تكون صناعة علميّة.

إنّ المعرفة في نظر ابن خلدون تركيب للعلاقات، وعلى هذا الأساس فإنّ الأحكام التي تبدو متناقضة ليست كذلك في الحقيقة مثل موقف ابن خلدون من الانفعالات وموقفه من العلاقة بين الخير والشرّ. فانفعال الغضب ليس سلبيّا بصورة مطلقة بل ضروري للدّفاع عن المجتمع والانتصار للحقّ والعدل. والشّر ليس شرّا مطلقا لأنّ الإنسان في حاجة إلى الشرّ اليسير لتحقيق الخير الكثير. نرى إذن أنّ التّناسب يمكّن من إدراك الحقيقة، والتّناسب بين الصّورة

---

1) نفس المرجع، ص 528.

والمادّة أساس تحقيق العدل، والتّناسب بين الحسّي والعقليّ أساس إدراك الجمال. فلا فصل بين العلم والصّناعة ولا فصل بين الجمال والحقيقة وبين الحقيقة والخير وأنّ سعادة الإنسان في الاتّحاد بالمبدإ الأوّل الذي نسج الوجود على النّسب المتآلفة فكانت الصّناعة الإنسانيّة محاكاة للعمل الإلهي.

إنّ المعرفة العلميّة عند ابن خلدون صناعة، والصّناعة تقتضي المراوحة بين النّظر والعمل. وعلى هذا الأساس فالمعرفة العلميّة تركيب للعلاقات تدرك أنّ الواقع معقّد وأنّه قابل لأحكام متعدّدة. فالمعرفة العلميّة معرفة منفتحة جدليّة لا يفارق فيها النّظر المواد المحسوسة ويراعي ما يلحقها من الأحوال، وهذا لا يكون إلاّ بتطبيق حساب النّسب. وهذا التصوّر للمعرفة تصوّر أفلاطوني لأنّه لا يفصل بين العلم والصّناعة على أساس رياضي، ولكن أسمى الصّناعات ليست الفلسفة السياسيّة كما نجد ذلك عند أفلاطون وإنّما علم العمران وتلك عبقريّة ابن خلدون.